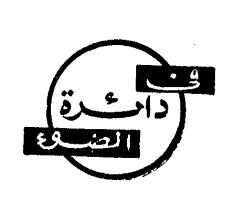


موقف الاسلام من العلم والفلسفة الغربية

أنور الجندى

دار الاعتصام

موقف الاســـلام
من العلم والفلسفة الغربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل للفكر الاسلامى خصائص ذاتية متميزة تفرق بين دين الفكر البشرى وتحول بينه وبين الانصـــهار فى العالميـــة والأممية

ان كثيرا مما يكتبه الباحثون فى شئون الفكر والفلسفة والعلوم يحاول أن يصل الى مسلمة تقول بأن الفكر الاسلامى هو أحـــد أطراف الفكر العالمى الذى تشكل فى اطار الفـــكر اليونانى القديم والذى يتشبح الآن فى اطار الفـــكر الغربى العالمى وهذه المسلمة مرفوضة ، وان كان دعاة التغريب يرددونها ويكررونها حتى يثبتوها فى الأذهان وهى فى الحقيقة ليست صحيحة مطلقا ، بل وليس لها أى وجـــه من وجوه احتمال الصحة . وهى فى غايتها محاولة للتآمر على الفكر الاســـلامى واخراجه من اطاره الخاص وطابعـــه المميز . ولقـــد يذهب البعض فى التعليل الزائف والتحليـــل الباطل الى القـــول بأن الفـــكر الاسلامى تأثر أو تشـــكل فى ضوء أو فى اطار الفكر اليونانى القديم (أو الفـــكر البشرى كله هنديا وفارسيا وفرعونيا وبابليا) وهو الآن فى نهضته الحديثة لا ضير أن يستمد من ثمرات الفكر الغربى الذى هو وليد الفكر اليونانى القديم .

وهذا القول مرفوض قطعا وقد كشف زيفه — عندما استعلن لأول مرة على لسان الدكتور طه حسين وقلمه — عشرات من الكتاب والباحثين .

والواقع أن « الفكر الاسلامى » هو وليد القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأن هذا المنهج الربانى قد جاء للاسلام فى صورته النهائية والكاملة والباقية بقاء البشرية معلنا كلمة الله التى القاها الى أنبيائه ورسله منذ بدأت رحلة النبوة والوحى بين السماء والأرض الى أن توقفت بخاتم الرسل والرسالات والكتب .

ومن هنا فان الاسلام جاء بالحقائق التى أرسل الله بها رسله وأنبياءه الى الأمم ، هذه الحقائق التى حرفت وغيرت وبدلت وتأولها المفسرون على النحو الذى نقلها من اطار الفكر الربانى الخالص المجرد المبرأ من كل شىء الى الفكر البشرى القائم على الهوى والمطمع والغايات الخاصة والمنحرف عن الأصل الحقيقى .

جاء الاسلام لتقرير الحقائق الربانية الأصيلة فى مواجهة الفكر المختلط ، الذى كان ربانيا فى أصله ثم شابته زيوف واضافات وحذوف ، ومن هنا فان الفكر الاسلامى مستمدا من الاســـلام نفسه يجب أن تكون له خصائص ذاتية مميزة تفرق بينه وبين دين الفكر الشرى ، وحتى تظل البشرية سائرة فى ضوء الهـــدى لأنه لا بد أن يظل قادرا على رد كل زيف أو تحريف ، وأن يكن ممتنعا عن الانصهار فى الفكر البشرى أو محتوى منه أو داخلا فيه .

وذلك لأنه هو فى جوهره وأصوله القرآنيـــة الاصيلة هو الشاهد والمهيمن على اضطراب الفـــكر البشرى وزيف التغـــيرات والاضـــافات التى أصابته على مـــدى الأزمان والعصور .

ومن هنا فاننا نجد الفكر الاسـلامى يعارض الجمود والتعصب والتقليد ويعـارض كل ما يصادم قوانين الكون ونواميس الوجود ويرى أن كل شيء يبدأ من نقطة ثابتة وينتهى اليها « الحركة فى اطار الثبات » وأن كل شيء يبدأ صغيرا ثم ينمو حتى يكتمل ثم يعود مرة أخرى فى دورة جديدة . وهناك ارتباط جـذرى بين الفكر الاسلامى واللغة العربية ، ذلك لأن كل لغة لها منهجها القائم على معانيها ومضامينها ، ولقد هاجم المسلمون المنهج الارسطى لأنه مستند الى خصائص اللغة اليونانية التى تخالف اللغة العربية وكذلك الأمر بالنسبة للمنهج الغربى .

(٢) والفكر الاسلامى لا يعمـل الا ضمن النطاق الذى رسمه القرآن وحدده ، ويحكم على كل ما يواجه المسلمين فى ضوء القرآن نفسه ولا يحكمون منه منهجا آخر ، وهو فى نفس الوقت متفتح على الثقافات العالمية يأخذ منها ويترك ، وهو لا يأخذ الا ما ينفعه ويتفق مع طوابعه وما يزيده قوة ، وكل ما يأخذه يصهره صهرا تاما فى بوتقته ولقد حرر الاسلام اتباعه من التأثير الأجنبى بكل أنواعه ودعا الى اليقظة ازاء محاولة تغيـير المعـالم الأصلية لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسى .

ويعتبر المسلمون أن كل ما يقدمه الفكر العالمى هو مادة خام يأخذون منها ويدعون دون أن يكون مفروضا عليهم .

ويؤمن الفكر الاسلامى بأن كل نظرية أو مذهب قام فى مجتمع ما ، فانما أقامها أهلها على مقياس مجتمعهم وفى ظل تحدياته الواقعية والتاريخية معا ، فهى استجابة لظروف

البيئة ، ولذلك فهى سرعان ما تبدو مع مرور الزمن عاجزة عن تحقيق الهدف فيضاف اليها ويحذف منها ولذلك فان نقلها الى بيئات أخرى عسير لأنها تعجز عن الحياة والنماء .

ولقد كان الفكر الاسلامى دائما متفتحا لثمرات الفكر البشرى ولكنه كان قادرا حتى فى أشـــد مراحل الضعف والتخلف على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون انصهاره فى الفكر الأممى .

وقد رفض الفكر الاسلامى الفلسفة اليونانية واستعلاء الاعتزال وجبرية التصوف .

***

(٣) والفـــكر الاسلامى لا يقر مفهوم « الانشـــطار » أو التجزئة ، ذلك لأن الاســـلام يقوم أساسا على التكامل وعلى التقاء العناصر المختلفة فى كل موحد ، وهو فى هذا يختلف عن الفكر الغربى ، كذلك لا يقر دعوة التولستوية والغاندية المتجزئة التى لا تقر مفهوم الجهاد . والاسلام يقوم على السلام والتسامح فى نفس الوقت الذى يقوم فيه على المقاومة والقوة .

وللفكر الاسلامى أبعاد هامة : (١) التكامل بمعنى وضع الجزء فى مكانه من النظرية الكلية الجامعة فى نظرة شاملة واعية بالحيـــاة . (٢) العمق الزمنى الذى يربط الانسان بالتاريخ والواقع وقضايا الحياة . (٣) اتساع مكانى يربطه

بالأحداث العالمية . (٤) العمق العقدى الذى يربط الانسان برسالة السماء منذ بدئها الى ختامها ، ومنها ارتباط الأرض بالسماء ، وارتباط الدنيا بالآخرة ، وامتدادها الى ما بعد الموت ، بعثا ونشورا . (٥) تعليل الظواهر بعللها الطبيعية التى ترجع فى نهايتها الى ارادة الله . (٦) الالتزام الأخلاقى الذى هو عماد العــلاقات بين القوى المختلفــة واساسه التقــوى .

* * *

ما هو العـــلم :

(٤) ان الخلاف بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى ليس مع العلم التجريبى ولكن مع الفلسفة ، هذه الفلسفة التى أخذت اطارات العـــلم وحاولت أن تستعين بها على اذاعة مفاهيم المادة وعلى الباحث المسلم أن يتنبه بأن هناك فاصلا واضحا وعميقا بين العلم التجريبى وبين الفلسفة ، ومن شأن هذا الفارق أن تتقبل العلم التجريبى لأنه من المعرفة الانسانية العامة ويتحرر من تقبل الفلسفة لأنها من المعطيات الذاتية الخاصة بالأمم والعقائد . والثقافات تختلف من أمة الى أمة ومن عصر الى عصر .

فالعلم لا ينكر وجود الله ولا ينكر الغيب ، ولكنه يقصر جهده على عالم المحسوس والملموس من حيث هو تجربة مادية خالصة ، ولكنه لا يدعى أنه يقدم نظرة كاملة للحياة . وقد تكشف للعلماء التجريبيين الآن بعد انفلاق الذرة أن هناك باتا قد فتح لعالم غيبى مجهول ضخم يعجز العلم بأدواته العاجزة عن اقتحامه ولكنهم يعلمون الآن بوجوده ويقرون به .

وقد أعلن العلم انه يعجز عن حل المشاكل ، وقال العلماء أن الذهن البشرى وحده لا يستطيع فهم حقائق الحيـــاة . وقد تبين بعد طول الجهد المبذول أن العلم لا يكشف المجهول

من الأسباب ولكنه يدرس الظواهر وانه يقوم فى أول أمره على فروض فاذا ثبتت بالتجربة أصبحت صحيحة واذا فشلت لم تكن شيئا .

واهم ما تجاوزه العلم فى المراحل الأخيرة اقترابا من مفهوم الدين هو تحطيم نظرية الجوهر الفرد ، فان فهم الذرة وانفلاقها قد ألغى تلك الفوارق التى تفصل بين المادة والطاقة ومن ثم أصبح معلوما أن المادة تصبح طاقة والطاقة تصبح مادة .

والعلماء يقررون (حسب ما يقوله العلامة سبانيه فى كتابه فلسفة الدين) أن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود وهو ليس الا عدما بالنسبة لما يجهلونه . وأن نظريات العلم نظريات وقتية مستعدة للتحوير والتغيير متى آن أوان ذلك .

يقول كاميل فلامريون : لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر وذلك ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وادراك سر أصول الأشياء . ويقول : ان الروح موجودة وجود كائن مستقل عن الجسم وهى متمتعة بخصائص لم تزل للآن مجهولة لدى العلم ويمكن للروح أن تؤثر أو تتأثر من بعد .

ويقول اميل بوترو : فى كتابه العلم والدين : عجز العلم عن حل كل المشاكل ، والعلم مهما تقدم فهو محدود ، لا يوجد غير الدين الذى يسد الفراغ .

وبذلك كله تغيرت المفاهيم المحدودة الأولى التى اختطها الفلاسفة وبنوا عليها نظريات وأيدلوجيات : ومن النظريات الزائفة قولهم ان المادة هى أساس كل شىء ، ثم قولهم ان المادة عمياء صماء ، وكيف يمكن أن يكون البديع الدقيق على تنوع كائناته وتباين موجوداته مادة ، أو صدفة ، ان المادة منقادة بواسطة قوانين ونواميس الى التشكل وفق نسب مقدرة ، ومن هنا فقد تبين زيف القول بأن المادة ذات كيان مستقل ، والمادة فى مفهوم العلم الحق اليوم ليست قديمة ولا باقية وقد خلقها الله تبارك وتعالى وتبقى الى أجل مسمى عنده ، وليس شىء فى هذا العالم من الصدفة أو الضرورة . أو أنه اعتباطى بغير غاية .

وفى ضوء هذا لا نقبل التمويه بأن العلم التجريبى المتصل بالمادة يصلح لدراسة الانسانيات ولابد أن يكون هناك منهج آخر لدراسة النفس والأخلاق والانسان والمجتمع ، غير منهج العلوم المادية والتجريبية .

ولقد شقيت البشرية فى العصر الحديث لأنها توسعت فى العلوم المادية وقصرت فى العلوم الانسانية ، وبذلك خلقت فجوة ضخمة وأزمة عميقة . وأصبح ذلك من أكبر الأخطار التى تواجه العالم المعاصر والانسان الحديث ، ذلك العجز عن التوازن بين مطالب الروح والفكر والنفس ، المطالب المعنوية ، وبين مطالب الجسد والمادة ، وقد نتج عن ذلك ما تواجهه البشرية الآن من أزمة القلق والتمزق والضياع ، وقد عبر عنه برجسون حين قال : ان جسم البشرية قد تضخم تضخما خارقا للعادة بينما ضعف روح البشرية وتضاءل .

ما هي الفلسفة :

ولقد حاولت الفلسفة أن تسد هـــذا الفراغ بتصورات مختلفة عن الكون والغيب والوجود والانســـان : لماذا جاء والى اين يذهب ولكنها عجزت تماما . عجزت لأنها حاولت أن تستعمل اسلوب العلم التجريبى فافترضت أن الانسان مادة وحاكمته على هذا الأساس .

وفشلت لأنها ظنت أن العقل البشرى قادر على ادراك حقائق الأشياء خارج نطاق وظيفته الخاصة ونطاقه المحدود .

ولقد كان لطغيان المفهوم المادى أثره البعيد فى الفلسفة التى حاولت أن تلغى كل ما وراء الطبيعة ولا تعترف به . غير أن العلم اليوم أصبح يعترف بأن هناك عالما آخر ، وأن أمام العلماء من الدلائل ما يؤكد ذلك فكيف تنكر الفلسفة هذا العالم ، انها اعتمدت على العقل والحواس وهما قاصران والعلم نفسه يعترف بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك شيئا الا عن طريق الحواس ، ولذلك فان كل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو أن يعرف عنه شيئا . ولقد تبين أن هناك مسائل عديدة لا يستطيع العلم أن يجد لها حلا ولا يصل الى فهمها ، واعتماد الفلسفة والعقل والحس لا يؤدى الى شىء ، اذن فهناك علم آخر مكمل لهذه

العلوم : هو ذلك العلم الذى أرسل الله به الرسل وجاء به الوحى ، وقرره كل كتاب سماوى . واذا عجز العلم ، وطاشت الفلسفة ، فان فى أيدينا نحن المسلمين ما يسد الفراغ ، ولقد أعطانا الدين الحق صورة كاملة لهذه الجوانب التى يعجز العقل والعلم عن الكشف عنها ، حتى لا نكون فى متاهة البحث الشاق تغير ادوات ، والذى لا يصل الى شىء ، ولقد جاءت رسالآت الأنبياء لتمنح الانسان ذلك الافق الواسع الرحب من الفهم ، ليعرف أبعاد وجوده وكيانه وحياته ومصدره ومآله ، ويعرف ما بعد الموت ، وما بعد الطبيعة جميعا حتى تكون رؤيته للاشياء وتقديره سليما وحتى تكون ارادته الخاصة ومسئوليته الفردية قائمة على أساس من الفهم والعدل .

ان وراء العقل الروح ووراء البصر البصيرة . والعقل هاد يستمد ضياءه من الروح وكلاهما العقل والبصر لا يدرك ما فوق مرتبته ولكنه يستطيع أن يعلم ، فانك لو رأيت حجرا يرتفع فى الهواء لعلمت أن راميا رمى به فعلمك أن راميا رمى به ليس من قبل البصر بل هو من قبل العقل لأن العقل هو الذى يميز ويعلم أن الحجر لا يذهب علوا من تلقاء نفسه ، أرأيت كيف أن البصر وقف عند حده فلم يتجاوزه فكذلك يقف العقل عند حده من معرفة الخالق تبارك وتعالى فلا يعدوه .

وعدم العلم بوجود الشىء لا يعنى عدم وجوده ، وعدم القدرة على الاحاطة بوجود الشىء لا يعنى عدم وجوده ، اذا كان الجهاز المستعمل (وهو العقل) فى ذلك اقل واصغر من الموجود نفسه .

وهنا نعرف محدودية العقل ومحدودية مهمة العلم وعجز الفلسفة عن طريق العقل عن الوصول الى كنه الأشـــياء وحقائق الوجود والله تبارك وتعالى لا تدركه الأبصار ولكنها تعرفه فى خلقه ونظام كونه ((**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**)) ٠

* * *

ان المعرفة التجريبية هى التى أخذت مفهوم العلم ولكن الفلسفة ليست الا افتراضات خارج دائرة التجريب تحاول أن تصطنع الأسلوب العلمى فى النظر والاستدلال . ولا تخلو من الأهواء والمطامع . وهى حين تحاول أن تنقل التجريب الى عالم النفس والانسانيات والأخلاق تتعثر وتخطىء . فان مفاهيم الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق لا تخضع للتجريب لاختلاف النفوس والطبائع والبيئات والعصور ولكن العلوم المادية تخضع لذلك . وكل ما يقال عنه فى هذا المجال انه علم فهو فلسفة . والفلسفة المعاصرة حسية مادية واقعية لا تعترف مطلقا بغير ما يقع تحت التجربة من محسوس وملموس . ولذلك فهى تنكر العوالم الغيبية التى أصبح العلم يعترف بها . وهى تنكر الوحى والألوهية والنبوة والبعث والجزاء والأديان والكتب المنزلة . وهى لذلك قاصرة عن فهم أبعاد الحياة والوجود التى يعرفها المؤمن بالله ومن أجل ذلك فقد اختفت فى صياغة حياة ناجحة أو نافعة لأنها عجزت عن العطاء الأخلاقى الذى يشكل الوازع النفسي . وقد جاء هذا النقص نتيجة الغلو فى النظرة المحسوسة والتجارب الآلية والرياضية — كما يقول الدكتور محمد البهى — لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدركه الحس وينشأ عن التجارب المادية ولذا الغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة فى حياة الانسان كما الغى رسالة الدين فى توجيه الناس نحو الله .

ولقد حاول العلم الادعاء وتحاول الفلسفة الادعاء باسم العلم اليوم أنها ستقضى على الدين ولكن كل الدلائل تؤكد زيف هذا الادعاء ، ان العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين ، بل انه سوف يؤكد وجود الدين ، واذا كان الدين الحق لا يفسر ظواهر الكون كالعلم فانه يضع الاطار الأخلاقى للحياة ويرسم منهج العلاقة بين الله والانسان . والاسلام هو الذى أقام للعلم منهجه التجريبى ووضع له آدابه وقيمه من حيث حرية البحث وكرامة العلماء وسمو الغاية وبعدها عن التدمير والشر .

وخطأ الفلسفة فى نظرتها الى الدين يرجع الى أنها تظن أنها تصلح بديلا له فى تفسير أمور الطبيعة والحياة . كما أنها تتجاوز حـــدود الحق حـــين ترى أن الدين الحـــق عائق عن التطور .

ولقد توزعت الفلسفة بين اتجاه مادى واتجـــاه عقلى واتجـــاه روحى فى محاولة استخدام العقـــل فى فهم الكون والطبيعة وعجز العقل ، ولم يحقق هذا التمزق شيئا . فان الاتجاه المادى يرى أن العـــالم لم يزل موجودا بنفسه وبلا صانع . والاتجاه العقلى يرى أن مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق والدنيا والآخرة انما يحلها العقل بأقتسته وبراهينه والاتجاه الروحى يعتمد على الحدس أو الالهام وحده بينما الاتجاه الاسلامى انما يقوم على مفهوم جامع شامل متكامل فيه العقل والقلب ، والمادة والروح . وهو يتمثل الانسان نفسه الجامع بينهما ، فيكون أصدق نظرة وأعمق فهما .

ولقد أكد الباحثون فى الفلسفة أنفسهم : أن أى فلسفة

مثالية أو مادية ، روحية أو عقلية لم تصل الى ما وصل اليه الاســـلام من تحرير عقل الانسان وتحطيم أغلاله الموروثة فهو يخاطب العقل والقلب معا ، وقد أكد وحدانية الله وكرامة الانسان : والقرآن يدعو الى اسهل العقائد واقلها غموضا وابعـــدها عن التقيد بالمراسم والطقوس واكثرها تحــررا من الوثنية الكهنوتية فقد ابطـــل القرآن سلطان الاحبـــار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب ولم يفرض على الانسان قربانا يسعى به الى المحراب بشفاعة من ولى ولا ترجمان بين الله وعبـــاده يملك التحليل والتحريم والغفـــران ويقضى بالحرمان أو النجاة . والخطاب أيما يتجه فى القرآن الى عقل الانسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهنتها وسدنتها وكل هذا من شأنه أن ينمى فى الفرد الاحساس بالمسئولية ويفتح بضميره منفذا واسعا الى الألوهية يربطه بها ربطا مباشرا محكما يرفع كل حجر على وجدانه . ولقد علم القرآن أتباعه ان يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش لا مثيل لهما فى الأديان الاخرى وحثهم على الاقبال عليهـــا والزهد بها فى آن واحـــد مع توازن مدهش لا تفريط فيـــه ولا افراط شعاره الدين والدنيا .

« ليس بين الكتب التى توصف بالقداسة وتنسب الى السماء كتاب كالقـــرآن : يدعو اتباعه على الدوام أن يكونوا أعزة أقوياء ولم يصلح فى هذه الدعوة كتاب آخر كما أفلح القرآن ، ـــ دكتور محمد عبد الرحمن مرحبا » .

وهكذا نرى أن النظر الفلسفى الخالص لا يمكن أن يكون أساسا للفكر الاسلامى ذلك انه لا يمكن الوصول الى الحقائق الأولية الا عن طريق الوحى ، والفلسفة ليست قرينة الوحى ، ولا مناظرة له ، فهى لا تزيد عن ان تكون استخداما العقل .

الوثنيــة :

والظاهرة الواضحة الآن ان جميع الفلسفات المعاصرة تقوض دعائم الاعتقاد بوجود اله واحد بغض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من تقترح الوهية المادة ومنها الوهية الانسان ، ومنها ما يجعــل الغريزة محور تفسير الوجود ، وهــدف الفلسفات الآن تدمير عقيدة التوحيد لأنها العقيدة التى تحول دون سيطرة نفوذ المادية على مصير البشرية .

ويرى كثير من الباحثين أن تسلط النزعة المادية على الحضارة والفكر قد خلق وثنية جديدة أخطر من الوثنية التى جاء الاسلام للقضاء عليها . والوثنية هى عبادة المجسد . وهى اليوم عبادة المال وعبادة القوة وعبــادة السلطان ، وعبادة العلم وعبادة الحضارة وعبادة العبقرية وعبادة الكلمة وعبادة اللذة والترف والرفاهية . ان معنى الوثنية أن يخلق الانسان الها يعبده ويتخلى عن عبادة الله الحق ، ان التلمودية اليهودية قد سيطرت على الفكر الغربى فنقلته من عبادة الله الى عبادة العجل الذهبى « المال » وسيطرت لبناء امبراطورية الربا .

ان العلم الذى هو معبود الغرب اليوم لم يستطع أن يقدم للبشرية حلا لأزماتها ومشاكلها فيما سوى المتاع المادى ،

أما النفس الانسانية فانها تواجه أزمة خطيرة خانقة هى أزمة الضياع والتمزق والانهيار . العالم ليس مادة فقط وليس علما وعقلا فقط ولكنه الى ذلك روح ووجدان وقلب وعاطفة .

لقد تبين أن الانسان عاجز عن أن يقدم لنفسه الحلول الملائمة لمشـــاكل النفس ومشاكل الحياة الاجتماعية وانما يحتاج دائما أن تقدم له هذه الحلول من جهة أعلى من عقله وقدرته وأسمى من أهـــوائه ومطامعـــه . ولن يكون ذلك الا عن طريق الدين الحق .

يقول هارولد لاسكى : عالم اليوم يعانى الشعور بخيبة الأمل ، ان جيلنا فقد قيمه ، لقد حل « الشك » السافر محل « اليقين » واليأس محل الأمل ، ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقا لا تعترف بالتراث الذى أبدع روائع الماضى ، ان الحرب قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياسا دائما للسلوك ، لقد انتصرت روح الانكار على روح اليقين . ان منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار . فى مقدور هذا العلم أن يتيح الرفاهية المادية ولكنه يبدو عاجزا عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحى . ومنذ قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص الا فى ظل الحاضر العاجل .

ويقول خليل حاوى : ان فجيعة القلوب هى فى أن العقل محدود المعرفة عاجز عن ادراك حقـــائق الايمان والدين . فمن المستحيل ادراك المطلق عن طريق العلم (أى التجربة) أو العقـــل لتعالى المطلق عن التجربة والواقع . والانسان

ليس كائنا يعقل فحسب بل هو كائن له قلب وادراك ، ومن حق الارادة الايمان بأشياء لا يثبتها العقل ولا ينفيها فمن حقها أن تؤمن بمعتقدات الوحى والدين وخلود النفس ووجود الله تبارك وتعالى لأن العقل لا يستطيع أن ينفيها وهكذا نرى أهل الفكر البشرى فى حيرة شديدة رحمنا الله منها بمفهومنا المتكامل الجامع بين الروح والمادة ، دون أن يسقط فى محظور المادية ودون أن يسقط فى أزمة وحدة الوجود .

ونجد الفلسفة الغربية اليوم وقد وصلت الى مرحلة شاقة : ذلك انها تجعل مهمتها قاصرة على جبرية النظرة فهى تصور الواقع وتعايشه وتعلن الشبهات والشكوك ، ثم تقف دون أن تضع الاجابات وبذلك تخلق الحيرة الشديدة فى وجدان أتباعها . أما الاسلام فهو يختلف تماما ، انه يدعو الى تحرير المواقف وتصويبها فى ضوء هدف أساسى تعرض عليه المواقف المختلفة ضمن اطار واضح محدد .

أما الغربى فانه ينطلق من واقع غـــير مقيد بأى اطار أو ضوابط أخلاقية أو دينية ، انه يتحرك فى اطار أوضاع الحياة وتحديات المجتمع ، مؤمنا بالنسبية فى الأخلاق والتطور المطلق فى الحركة ، والجبرية التى تسوقه دون ارادة ، فهو لا يصل الى غاية ولا يجد الاستجابة لتكوينه النفسى والمعنوى والروحى الذى يصرخ فى داخله تحت قسوة ضربات المادة والجنس والتحلل وحرية الاباحية .

وبذلك نجدنا تماما أمام حقيقة لا ريب فيها يعبر عنها العلامة المودودى حين يقول : « ان النظريات التى وضعها الانسان عن نفسه وعن الحيـــاة الدنيـــا وعن نظام الكون

وعن ذات الاله مدفوعا بدراسته الشخصية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهـواء ثم المواقف التى اتخـذها على أساس تلك النظريات فانها فى حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير ، وانما الحق هو الذى علمه الله للانسان حين جعله خليفة فى الأرض وبموجب هذا الحق ليس من منهج من المناهج الا المنهج الذى هو : المنهج الصحيح » .

نعم : لقد فشـل الفكر الغـربى الحديث فى استيعاب الحقيقة الانسانية وعجز عن تعيين أبعادها وحبس نفسه فى اطار ضيق خانق هو اطار المادة ، وبذلك عجز عن وضع الحلول المناسبة لأزماته وفشل فى تفهم معضلاته الاجتماعية والأخلاقيـة التى باتت تعصف بمجتمعه اليوم وتهـزه من الأساس .

وحين انتقل هذا الاعصار الى افق الفكر الاسلامى وجد من بعض العقول الساذجة بريقا ومن بعض النفوس البسيطة تقبلا ، ثم تكشف زيفه سريعا فى محيط أمة مؤمنة بالله ، وايمانها عميق وراسخ فى أعماق أربعة عشر قرنا ، فلم يجد قبولا أن يقال أن الطبيعة تدبر نفسها وانها ليست فى حاجة الى فاعل أو خالق ، وما كان لهذا البريق أن يستمر ولا لهذا الصوت أن يعلو ، لأنه يناقض مناقضة صريحـة كل خلة فى الانسان ، عقله وقلبه وفطرته ويناقض العلم ويناقض هذا المـيراث الضخم من التوحيـد الذى قضى على الغنوصية والهلينية قديما وقضى معهـا على الوثنية وبيـوت النـار وكل ما سوى عبادة الواحد القهار وما كان التـاريخ يعود القهقرى بهذه الأمة التى حملت رسالة التوحيد والتى هى خير أمة أخرجت للناس . ولذلك سرعان ما انقضت على هذا

التيار قوى التصحيح والتحرر من الزيف والعودة الى المنابع واستلهام الحق كاشفا بتلك الأصالة التى تؤمن بالله وبارادة الانسان ومسئوليته والتزامه الأخلاقى وخلود روحه وتوقه الى ربه خالقه ومبدعه . ومهما علت دعـــوات المـــادية أو الماركسية ، أو الوضعية المنطقية ، أو الوجودية فانها لن تجد سوقا ولن تجد الا أولئك الذين عجزوا عن فهم حقيقة دينهم ، فالقرآن يقرر أن الدين فطرة فى الانسان فطر الله الناس عليها وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون وأنه واحد لا شريك له وما هـــدانا اليه القـــرآن لا يعارض العقـــل أو الفطرة .

« فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت، ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٤٩٢٨
الترقيم الدولى ٧ — ٣٦ — ٧٣٠١ — ١٩٧٧